صراعيات

شعراؤنا والناقد العبقري ...

للأســـتاذ دريني خشبة

لن أثور كما ثار الدكتور مندور يا حضرات القراء ، ولن أسمح لأعصابي أن تتمزق على هذه الصورة المضحكة التي تعرض صاحبها لرثاء قرائه وطلبهم المغفرة له ، وذلك لأنني دعوت الأدباء في مصر أن يضبطوا عواطفهم — في الصيف — وما كنت أظنهم يهملون صمامها ونحن على أبواب الشتاء

وقد قدح الدكتور مندور فينا بالذي قدح ، غير أننا نثني عليه بما هو له أهل من أكرم الثناء ... فقد سعدنا بصداقته قريباً ، ودافعنا عن رجولته التي غمزها صديقنا الكاتب المعروف الذي أغضبه منا هذا الدفاع ، وعزاه إلى خصومة قديمة توهمها بيننا وبينه ، مع أننا أزهد الناس في الخصومات الأدبية وأحوجهم إلى معونة الأدباء بصدد الدعوة التي ندعو إليها

نثني على الدكتور مندور فنقرر أنه أعلم منا بالموضوع الذي أثرناه ووجد فرصته فيه ، فانطلق يكتب هذه الفصول القيمة التي سنقرؤها وجدنا — أو مع خمسة أو عشرة على الأكثر من حضرات القراء الذين يعنيهم هذا الموضوع

الدكتور مندور يا حضرات القراء أعلم منا في موضوع أوزان الشعر الأوربي لأنها من ضمن ما تخصص حضرته فيه ، ونال عليه الدرجات العلمية العُلى ، فهو إذا تكلم فيها ، تكلم عن علم وبصيرة وخبرة

لكننا مع هذا لا نرى أن يمنعنا أحد من التكلم في أي موضوع نشاء ، إلا في الطب والهندسة والصيدلة والكيمياء ، وما إلى ذلك من الموضوعات التي لا تصلها بالأدب صلة ، فهل أعاريض الشعر من هذا القبيل ؟

سيقول الدكتور مندور ، أجل ، هي من هذا القبيل ، بدليل أنك تكلمت في طرف ضئيل منها ومع ذاك فقد (أخطأت وأوهمت وتوهمت وضللت وضللت وموهت ولم تتحر الدقة بل ترديت في الخطأ البين في أبحاثك التي تحشدها ...) إلى آخر هذه المجموعة الوافية من العبارات الشافية الكافية التي أسبغها علينا الدكتور الصديق محمد مندور ، الذي كنا نتمنى أن نراه وهو يكتب هذا الفصل المنفعل الصاخب الظريف الذي صبّ حممه فوق رأسنا !

وقبل أن نداعب أخانا مندور بما هو له أهل من الداعبة ، وقبل أن نكشف الغطاء عما هاجه علينا وأحفظ صدره منا ، نتناول تجهيلاته التي جهّلنا بها ، فنرى كيف أوقعتنا المقادير في ظلماتها حتى أعمتنا — والعياذ بالله — هذا العمى المطلق الذي لم تره غير عين صديقنا العزيز

عندما قلنا إن أساس العروض الأوربي هو التفعيلة لا البحر فهم حضرة صديقنا العروضي المحترم أننا ننكر وجود البحور في الأعاريض الأوربية وعلى هذا بنى بحوثه القيمة ، مع أننا ذكرنا كثيراً من هذه البحور في الحاشية التي أثبتناها في ذيل مقالنا وقلنا إن هذه التفعيلة هي أساس البحر (الفلاني !) ومن هذه التفعيلة ومن تلك يتكون البحر (الفلاني) ، وإنما قصدنا بأن التفعيلة هي أساس العروض الأوربي أن الشعراء هناك أكثر حرية في استخدام هذه التفاعيل فلا يتقيدون بعددها في السطر (أو البيت) كما يتقيد شعراؤنا هذا التقيد الذي عبناه عليهم ولا نزال نعيبه عليهم . فمجرد (توهم) أننا ننكر وجود هذه البحور هو دليل الأعصاب المزقة والموجدة التي تأكل قلب الصديق الحميم علينا للسبب الذي سنبينه بعد أن نرد ترهاته كلها . والمقال موجود أيها القراء بالرسالة (العدد ٥٣٨) ، فقوله إذن إن كلامنا لا معنى له مطلقاً هو كلام يشبه الهوس ، ونحن مع ذلك نعذره لأن معرفتنا بالدافع الذي أطلق لسانه فينا يفقد العقلاء عقولهم . وقد منعنا من تناول هذه البحور بالشرح الذي شمر له صديقنا الحميم عن ساعد الجد ما قلناه في صلب المقال من (أنه ربما لا يسر القارئ ، بل ربما يضايقه جد المضايقة أن نخوض به في شيء من معميات العروض الإنجليزي) ... وربما أوهمه اقتضابنا هذا لذاك السبب أننا (إنما نوهم ونتوهم أننا نعرف شيئاً ...) إلى آخر هذا السَّفَه الذي نمر به كراماً لأن صديقنا الحميم قاله في ساعة من ساعات الانفعال الذي سنذكر سببه كما قدمنا

ويعيب علينا السيد مندور أننا قرأنا المعلومات التي سقناها في كتيب من كتيبات العروض ثم استعنا في شرحها بالقاموس ؛ وهذا ، لو أنه حصل ، لا يضيرنا قط ، ولكنه يضير الصديق

الحميم كثيراً ، لأنه يدل على أنه كان فاقداً لتوازنه وهو يكتب هذا الهذر ، إذ كيف يقرأ الإنسان فى كتاب من كتب العروض ، ثم يحتاج إلى القاموس مع أن كتب العروض الإنجليزى لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا تناولتها بالشرح . . . على أننى لم أفهم لماذا يعيب السيد مندور الرجوع إلى القاموس أو الاعتماد عليه فى شرح كلمة من الكلمات ؟ هل ذلك لأن المعلومات التى فى تلك القواميس تكون خطأ عادة ؟ وكيف يا أخى يصح هذا ؟ وكيف ياسيد العروضيين تغفل انجلترا ويغفل الإنجليز عن هذا الخطر الذى جاء السيد مندور ليكتشفه لهم صبيحة يوم الأحد فى السابع من نوفمبر سنة ١٩٤٣ ؟! تالله لقد نبهتنى إلى (قفشة) أقفشها لك ، فقد أحسست من ثنايا كلماتك أنك رجعت إلى تلك القواميس كما لم يفعل العبد الفقير إلى الله ، لتنظر فى معنى بعض تلك (المعميات) كما سميتها أنا رفقاً بالقراء ، فلما وجدت القواميس تنصر حتى على باطلك ، وتواضى على ادعائك العريض ، عجلت فأردت توهين هذه الحجة التى أقذف الآن بها عليك لتدمغك ، بالرغم من درجاتك العلمية الجامعية التى لا أنكرها قط ، ولا أقدح فيها قط

إسمع يا صديقى الحميم ما جاء فى قاموس القرن العشرين فى مادة Alexandrine :

A rhyming verse of twelve syllables, six iambic feet, so called from its use in old French poems on Alexander the Great. It is the ordinary verse of French tragedy.

ومعنى هذا اللغو (فى نظر الأخ مندور) أنه بحر (من بحور النظم) يتركب من اثنى عشر مقطعاً ، ست تفعيلات إيامبية ، وقد سمي كذلك من أجل ما استعمل فيه فى القصائد الفرنسية القديمة ، عن الإسكندر الأكبر وهو البحر الشائع فى المأساة الفرنسية

فهل قلنا نحن غير ذلك يا سيد مندور ؟ إليكم ما قلناه أيها القراء ، مما نقله الدكتور الفاضل بقلمه عن مقالنا : « ويفضل بعض الشعراء البحر الأسكندرى ، نسبة إلى الإسكندر الأكبر والقصائد التي نظمت فيه من هذا البحر . ويؤثر شعراء المأساة الفرنسيون النظم من هذا البحر إطلاقا ، وهو يتكون من اثنى عشر مقطعاً (ست تفعيلات إيامبية × مقطعين)

فأينا الذى لم يتحر الدقة ووقع فى الخطأ البين كما قال الدكتور مندور الذى نال درجاته العلمية فى هذا العلم ؟ أينا المخطىء أيها القراء ؟ أنا أم قاموس القرن العشرين ، أم الدكتور مندور الذى تخصص فى أعاريض الشعر قديمها وحديثها ؟ على أننا نرجع إلى لاروس ـ القاموس الفرنسى المحترم ـ لنرى ماذا يقول هو الآخر : فهو بعد أن جاء بالرواية التى ذكرها السيد مندور ، ويضيف إليها أنه يتركب من اثنى عشر مقطعاً كما ذكرنا نحن وأنكره الأخ العزيز المتخصص فى أعاريض الشعر ، يقول :

C'est le vers heroique, le vers de l'epopée, de la tragedie, des grands poémes.

فأين الخطأ البين الذى وقعنا فيه يا عالم ؟ ! لعل الأخ مندور ـ المتخصص فى الأعاريض بأنواعها ـ أخذ علينا نسبة هذا البحر إلى الإسكندر من القصائد التى نظمت فيه من هذا البحر وعدم نسبته بالذات إلى أل Roman d'Alexandre ؟ فاسمعوا يا أصدقائى القراء ـ وأنا فى حاجة إلى تعلقكم بهذه النداءات الظريفة ـ ما تقوله دائرة المعارف البريطانية عن هذا البحر ، فهى بعد أن تذكر أنه هو البحر الرئيسى فى الشعر الفرنسى ، وأنه يستعمل عادة فى الشعر القصصى والمآسى واللاهى الرفيعة ، تقول عن أصل تسميته :

There is some doubt as to the origin of the name, but most probably it is derived from a collection of romances published early in the 13 th century of which Alexander of Macedon was the hero.

ومعنى هذا : أنه يوجد بعض الشك بالنسبة إلى منشأ اسم هذا البحر إلا أن أكثرها احتمالا أنه مشتق من مجموعة من الروايات الشعرية ذاعت إبان القرن الثالث عشر ، وكان الإسكندر المقدونى بطلها .

فما رأى الأستاذ مندور فى هذا الهذيان الذى لغت به دائرة المعارف البريطانية التى اشترك فى تصنيفها ساداتنا جميعاً من علماء الأمة الإنجليزية ، والذين هم بلا شك أساتذتك وأساتذتى فى العروض وفى العلم وفى الأدب وفى ضبط الأعصاب أيضاً ! إنهم لم يقصروا تسمية هذا البحر كما فعلت أيها المتخصص فى الأعاريض الأوربية التى ذكرت والتى ذكرها لاروس ، بل قالوا كما قلنا ـ نحن الفقراء إلى الله الذين لم نتخصص فى هذا العلم ، لأنه ، وحياة ذقنك ، لا يحتاج إلى هذا التخصص أبداً ، قالوا إن ثمة شكاً فى

أصل هذه التسمية ، وإن أكثر الروايات احتمالا نسبته إلى الـ Romances التي نظمت في الإسكندر المقدوني

فأين إذن عدم الدقة ، وأين إذن هذا الخطأ الفاحش الذي تردينا فيه ، وأين هو التوهم والإيهام والضلال والتضليل ، وما نتخيله من أننا نعرف شيئاً ونحن لا نعرف شيئاً قط ؟ ! عفا الله عن مستر هايد الذي كان يلقي عليك هذه الوقاحات يا دكتور چيكل ، في ساعة من ساعات عدم الوعي التي يذكر إخوانك أنها كانت تنتاب چيكل المسكين كلما طار أحد أبراج عقله الجبار ...

أما تعبيري عن المقاطع بالطول والقصر وأنه لا ينطبق (بسهولة) على العروض الإنجليزي فقد آثرته ليفهمه الشعراء الذين أكتب لهم ممن درسوا أعاريض الشعر العربي ولم يلموا بلغة أجنبية ، وسأجعلك تطير من الفرح حينما أنقل لك هنا تفسير أحد القواميس التي لا يعجبك النقل عنها لإحدى التفصيلات ، كي تقول لقرائك . ألم أقل لكم إن جل اعتماده على القواميس !

إسمع ما يقوله قاموس القرن العشرين في تفعيلة Amphibrach

A foot of three syllables — a short, a long a short

أي :

an accented syllable between two unaccented.

فهل قلت أنا غير هذا الذي قاله هذا القاموس الجاهل أو دائرة المعارف التي ليس عندها علم السيد مندور ؟ ولقد ضربت لذلك مثلاً لاحظت فيه أن يشمل الارتكاز stress الذي نبه إليه حضرة الناقد اللوذعي فقلت مثل : (رَيْسانِهْ) ، ولاحظت وجود الارتكاز في كل ما ضربت من أمثلة عربية

وبعد . فماذا بقي مما جَهَّلنا به السيد مندور لم نرد عليه ؟

وبعد أيضاً ... فماذا يقول القراء في سائر الآفاق عن هذه اللجة التي ينحط إليها أدب المناظرة في مصر ؟

وبعد . وبعد ؛ فما سبب هذا الموقف الذي يقفه منا فجأة هذا الدكتور مندور ؟

اسمعوا إذن ياحضرات القراء

ليس صحيحاً أنه يقف هذا الموقف لأنني دافعت عن رجولته التي غمزها هو نفسه بالذي غمزها به صديقنا الكاتب المعروف ، كما يتفكه أصدقاؤه وأصدقائي في القاهرة ... وليس صحيحاً أننا نقتسم فيما بيننا تركة ، فالدكتور ليس من أقربائي ، وإن كان ذلك كان يسرني ويشرفني

ولكن المسألة أن الدكتور مندور يدأب منذ طويل في الطعن على شعرائنا المصريين بدون استثناء وتجريحهم ، والحط من شأنهم ، بل في تجريدهم من شاعريتهم ، وتفضيل شعراء المهاجر عليهم ، أولئك الشعراء الذين نجلهم ونحبهم ونعرف لهم فضلهم ومعاونتهم في نهضتنا العربية الأدبية الكبرى ... لكن أحداً لم يذهب إلى تفضيل هؤلاء الشعراء الأفاضل عامة على شعرائنا عامة غير الدكتور مندور ، وهو يستشهد في هذه الدعوى بقطع تدل على مبلغ تذوقه للشعر ، ومدى مقدرته على الموازنة بين الشعراء . وقد غضبنا لهذه الخطة الجائرة ، لا تعصباً أعمى لشعرائنا ، وإن يكن التعصب البصير دَيْنا لهم في أعناق الكتاب المصريين جميعاً ، ولكن لأن الدكتور قد جاوز حد الدعابة إلى حد الجد ، وأقول حد الدعابة ، لأنني حسبته إنما يداعب شعراءنا أول الأمر ، ولأن الموازنات التي ذهب إليها كانت كثيراً ما تغثي النفس وتقبض القلب ، وتتعمد الغض من أقدار الشعراء المصريين تعمداً باطلا بلغ حد الخطورة على سمعة الأدب المصري والشعر المصري ، الذي هو مع ضيق آفاقه التي نشكو منها دائماً ، ألمع مظهر من مظاهر هذا الأدب

ففي مقالنا عن ـ تجديد الأدب العربي ـ بالعدد (٥٣٥) من الرسالة ، كتبنا كلمات ثناء على شعرائنا الشيوخ نتقي بها ما كان يحتمل أن يُفهم من أننا نقصر الرجاء على شعرائنا الشباب في القيام بتجديد الشعر العربي شكلاً وموضوعاً ، فلما بلغنا الكلام عن الأستاذ العقاد قلنا إننا كنا نضع فيه أملنا للنهوض بأعباء تلك الثورة ، لكن أملنا هذا ـ خاب ـ بهذا التعبير ، حتى لا يظن أحد أننا إنما نحتمي بأحد في ردنا على صديقنا مندور ... وذلك لأن العقاد آثر أن يسلك الطريق القديمة للشعر العربي شكلاً وموضوعاً ... ولكننا قلنا قبل هذا في المقال نفسه ... « أما العقاد العظيم فهو شاعر المعاني غير مدافع ، والذين زعموا أنه لا شأن له بالشعر هم قوم قليلو البصر بالشعر ، بل ربما كان الأحسن ألا يكون لهم هم شأن بالشعر ، ولو أن العقاد كان يعنى بديباجته وتجويد أسلوبه الشعري لخر أمامه أولئك النقاد جثياً ... »

هذا ما قلناه ثبتته هنا لأنه هو الذي أحفظ علينا الأستاذ مندور وذلك لأنه هو قائل تلك القولة الجريئة التي تدل على قيمة